المصطلح النقدي

السنة الثانية ليسانس السداسي الرابع

أ. العرابي

قال ابن حزم الأندلسي:" لا بد لأهل كل علم و أهل كل صناعة من ألفاظ يختصون بها للتعبير عن مراداتهم و ليختصروا بها معاني كثيرة ".

و قال قدامة بن جعفر: " و مع ما قدمته فإني لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه و فنونه المستنبطة أسماء تدل عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعها. و قد فعلت ذلك، و الأسماء لا منازعة فيها إذا كانت علامات، فإن قنع بما وضعته و إلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب. فليس ينازع في ذلك".

و قال أبو حيان التوحيدي: "لا مشاحة في الأسماء اخترع و سم".

و قال عبد السلام المسدي: "لا يستوي الاجتماع الإنساني إلا باللغة، و لا يستقيم بقاء اللغة إلا بتجدد ألفاظها".

*** تعريف المصطلح النقدي:**

المصطلح أداة من أدوات التفكير العلمي، و وسيلة من وسائل التقدم العلمي و الأدبي، و هو قبل ذلك لغة مشتركة، بها يتم التفاهم و التواصل بين الناس عامة، أو على الأقل بين طبقة أو فئة خاصة، في مجال محدد من مجالات المعرفية و الحياة.

فإذا لم يتوفر للعلم مصطلحه العلمي الذي يعد مفتاحه، فقد هذا العلم مسوغه، و تعطلت وظيفته. و من هنا كان لا بد من تحديد الألفاظ و المفهومات، لأن مثل هذا التحديد هو المنطلق الأول للتفكير العلمي.

و إذا كان المصطلح رمزا وضع بكيفية ما، اعتباطية أو اتفاقية بين فئة من المختصين، في حقل ما من حقول العلم و المعرفة، فإن هذا الوضع يحتاج إلى الوضوح و الدقة، ذلك أن المعاني متفاوتة و متنوعة، فهناك معنى اصطلاحي، و آخر استعمالي، و ثالث معجمي.....الخ. فالمعنى الاصطلاحي

عرف خاص، لأنه ثمرة اتفاق طائفة معينة في علم ما، على أمر ما. و المعنى المعجمي عرف عام مشترك بين الناس جميعا.

و ما نقصده هنا ب " المصطلح النقدي" يشمل مصطلحات علوم عديدة، فالنقد، و البلاغة، و الأدب، و العروض، و القافية....الخ و لأن مصطلحات هذه العلوم جميعا هي من الكثرة بمكان.

*** نشوء المصطلح النقدي و تطوره:**

و إذا كان لكل قوم ألفاظ، و لكل صناعة ألفاظ، كما يقول الجاحظ، فإن من البد هي ألا تفهم آثار أولئك القوم، أو تلك الصناعة، إلا بمعرفة تلك الألفاظ. و من هنا كانت دراسة المصطلحات من أهم الواجبات التي ينبغي على الباحث أن يعنى بها.

و لا شك أن المصطلح النقدي و البلاغي نشأ عربيا، و ما إن بدأ الاتصال الفعلي بتراثات الأمم و الشعوب كالفرس و اليونان و الهند و الرومان حتى تسربت بعض هذه المصطلحات الفكرية و الفلسفية إلى النقد العربي و الأدب عامة. و بالطبع فإن مثل هذا التأثر و التأثير هو دليل صحة تفاعل خلاق. و قد أفاد النقد الأدبي من هذا التلاقح الفكري، يدل على ذلك تلك المصطلحات التي عرفت في العلوم العقلية، و النقلية، و الدخيلة، جميعا. يؤكد الجاحظ هذا بقوله: "هم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني. و هم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، و هم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا بذلك سلفا لكل خلف و قدوة لكل تابع" البيان و التبيين ج1 ص139.

و هكذا الشرع العلماء و النقاد و المفكرون العرب في وضع اصطلاحات نقدية و بلاغية. و لحظوا اختلاف هذه المصطلحات بين عالم و آخر، فقال ابن المعتز مثلا في مقدمة كتابه " البديع" : " و لعل بعض من قصر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه و تمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه" و عندما يأتي قدامة يعيد طرح المشكل من جديد، فيعزو لنفسه فضل الريادة في وضع بعض المصطلحات النقديات و الأدبية قائلا: " و لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه و فنونه المستنبطة أسماء تدل عليه احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها" نقد الشعر

*** المصطلح في التراث العربي الإسلامي:**

يمكن القول إن بدايات الوعي المصطلحي عند العرب المسلمين ترتبط بالتحولات الحضارية التي أحدثها ظهور الإسلام في مناحي الحياة العربية جميعها؛ و قد كانت التحولات اللغوية واحدة من أهم الآثار التي تركها نزول الوحي على محمد– صلى الله عليه و سلم– ذلك أن كثيرا من الألفاظ بدأ يأخذ معاني جديدة لم تكن معروفة من قبل؛ كالصلاة، و الزكاة، و غير ذلك..... و مع تقدم حركة التأليف في علوم اللغة و المنطق و الكلام و التاريخ، و البلاغة و علوم الشريعة كعلوم القرآن، و الفقه، و الحديث، و غيرها.... بدأت الحاجة إلى ثقافة المفاهيم اللغوية تظهر، و بدا من المهم العمل على إيجاد تحديدات دقيقة لما تعنيه ألفاظ المشتغلين بتلك العلوم، و هو ما دفع بعلماء المسلمين إلى وضع (مصطلح علوم الحديث) الذي يختص بدرجات الحديث و أنواعه و طرق اسناده، و هكذا أنقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت. و شرائط شرطت.

و لقد صار لكل جماعة تشتغل بعلم واحد ألفاظهم و مصطلحاتهم الخاصة بهم، يقول الجاحظ :"لكل قوم ألفاظ و لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها"

و قد شرع أصحاب تلك العلوم و الصناعات يحددون معاني ألفاظهم و حدودها و رسومها، و نشأت إثر ذلك حركة تأليف مصطلحي تمثلت في كتب خاصة باصطلاحات العلوم المختلفة، و منها:

- الحدود لجابر بن حيان (ت 200 هـ)
- مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (ت 387 هـ)
- رسالة الحدود، لأبي حامد الغزالي (ت 505 هـ)
- السامي في الأسامي، لأحمد من محمد أبي الفضل الميداني النيسابوري (531 هـ)
- التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني (ت 816)
- كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت 1108)

و مع أن هذه الأعمال لا تجمعها منهجية محددة المعالم، إلا أنها تمثل وعيا عليها بأهمية وجود معجمية مصطلحية، تجنبهم فوضى المصطلح، و تشكل مرجعية موحدة في التعامل معه. و هذه المؤلفات تكشف عن ملامح الوعي بمواصفات الجهاز المصطلحي في تراثنا العربي.

إن مدونات النقد و البلاغة في تراثنا العربي أظهرت شيئا من عناية القدماء بالمسألة الاصطلاحية في مراحل تأسيس الجهاز المصطلحي في أي علم من العلوم، و لعل استعراضا سريعا لتاريخ المصطلح في النقد العربي يبرز لنا الأمور التالية:

1- ظهور المصطلح النقدي و محاولات تأثيله في مرحلة مبكرة من مراحل الحركة النقدية في تراثنا العربي. و ما عناية الخليل بن أحمد (ت 175 هـ) بمصطلحات العروض و تحديدها إلا دليل على الاهتمام بالمبكر بالمصطلح.

2- لا نزال بحاجة إلى مراجعة الألفاظ و التعابير التي كان يتداولها الشعراء و رواة الشعر و اللغويون و النحاة حتى نهاية القرن الثاني الهجري؛ لأنها هي المنبع الأول للمصطلح النقدي البلاغي.

3- ثمة أثر واضح لعلاقة الإنسان بالبيئة البدوية و مكوناتها في صياغة المصطلح.

*** مفاهيم بعض المصطلحات النقدية التراثية:**

- الائتلاف= الملاءمة:

هو أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني: فتختار الألفاظ الجزلة و العبارات القوية للفخر و الحماسة، و تختار الكلمات الرقيقة و العبارات اللينة للغزل و المديح. فالشاعر المبدع هو الذي يتخير لمعانيه ما يناسبها من الألفاظ، و بهذا يحقق لعمله الفني تكامل الإمتاع و التأثير.

-الاتساع:

هو أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل فيأتي كل واحد بمعنى، و إنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ و قوته و اتساع المعنى.

- الازدواج:

هو تجانس اللفظين المتحاورين: نحو: من جد وجد، و من لج ولج.

و قد تحدث عنه الجاحظ في كتابه البيان و التبيين، و ذكر العسكري أنه " لا يحسن منثور الكلام و لا يحلو حتى يكون مزدوجا، و لا تكاد تجد كلاما لبليغ يخلو من الازدواج".

- الاستهلال= الابتداء= المطلع:

هو مطلع النص الأدبي، و يعطي الانطباع الأولي للنفس. فهو عامل مهم في إثارة التخيلات المناسبة. و قد سماه ابن المعتز (حسن الابتداء) و سمي بعده (براعة الاستهلال و كمال الاستفتاح).

و من أجل ذلك وضع البلاغيون و النقاد عناصر يجب أن تتوافر في الاستهلال الجيد، منها: الصورة المثيرة، و التشويق، و الاعتلال، و الملاءمة.

- **الاستطراد:**

اطرد الأمر اطرادا: تبع بعضه بعضا. و سماه ابن المعتز الخروج من المعنى إلى معنى. و سماه البلاغيون من بعد الاستطراد، و التراجع، و التباعد، و حسن التخلص.

و الاستطراد عند العسكري هو " أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، و قد جعل الأول سببا إليه".

أسلوب الحكيم:

هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه: إما بترك سؤاله و الإجابة عن سؤال لم يسأله، أو بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد و يريد، تنبيها لع على أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال.

و قد تحدث عنه الجاحظ فسماه اللغز في الجواب. و مثل له بقول الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ أمفرقا فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهرا؟ بل أقرؤه و أنا أنظر إليه. قال: أفتحفظه؟ قال: أخشيت فراره فأحفظه؟

الاعتراض: عرض: ظهر، و اعترض الشيء: حال دونه.

و الاعتراض مصطلح مضطرب الفهم، و أول من تحدث عنه الجاحظ و كأنه لا يفرقه عن التعريض و الكناية، حيث قال "إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن النبل. و إذا قيل للعامل (الوالي) مستقص فذلك كناية عن الجور.

ثم تحدث ابن المعتز عن الاعتراض، فقال إنه اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه، ثم يعد إليه فيتمه. ثم أصبح الاعتراض يسمى، بعد ذلك الالتفات، و الاستدراك.

الإقراء :

مصطلح عروضي يدل على عيب يصيب القافية. و هو اختلاف إعراب القوافي، و ذلك بأن تكون قافية مرفوعة، و أخرى مخفوضة. مثل قول النابغة:

أمن آل ميتة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد و غير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا و بذلك خبرنا الغراب الأسود

الالتفات:

مصطلح بلاغي له معان عديدة منها: الإعراض، و الاشتراك. و معنى الالتفات أن يكون الشاعر آخذا في معنى ثم يعرض له غيره، فيعدل عن الأول إلى الثاني، فيأتي به، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد الأول.

و قد جعله ابن المعتز على نوعين: نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، و عن الإخبار إلى المخاطبة و ما يشبه ذلك و نوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر.

التصحيف:

هو التشابه في الخطبين كلمتين فأكثر، بحيث لو أزيل أو غيرت نقط كلمة كانت عين الثانية، نحو: التحلي، التخلي، التجلي.

التعطف:

هو أن تذكر اللفظ ثم تكرره و المعنى مختلف، كقول الشاعر:

عود على عود على عود خلق

فالعود الأول: الرجل المسن، و الثاني: الجمل المسن، و الثالث: الطريق.

المصطلح في النقد الحديث

فعلى امتداد مسيرة التأليف في علوم النقد و البلاغة يصادف الباحث ما يمكن تسميته بالمنجز المصطلحي الثري الذي يملأ بطون التأليف في ذينك المجالين، و في تضاعيف هذا الجهاز يلحظ المتتبع أن كل مؤلف من المؤلفات النقدية و البلاغية يكاد يمثل قائمة مصطلحية منفردة بذاتها، و هي

قائمة تتضمن مصطلحات متداولة في بيئتي النقد و البلاغة، و أخرى انفرد بها صاحب هذا العمل أو ذلك، و حسبنا ما صنعه أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية و تطورها (1983).

و استمرت تلك الجهود المصطلحية في سيرورتها الزمنية ترفد الدرس البلاغي و النقدي، إلى أن ذهب بعض الدارسين للقول بأن هذه المصطلحات "كان لها أكبر الأثر في تقدم الحركة الأدبية الحديثة. و يبدو أن الاتجاه في السنوات الأخيرة بدأ يميل إلى الغرب، و صار المؤلفون و المترجمون و النقاد يغرفون من المصطلحات الأجنبية فيما ينشر و يترجم، و بدأت الأصوات ترفع شعار (إشكالية المصطلح النقدي)، تلك التي بدت ملامحها تتشكل في المدونة المصطلحية التراثية و ازدادت حدة في تحولات المصطلح في النقد الحديث بمختلف اتجاهاته.

و هنا بدأت الأمور تتجه نحو المزيد من الإشكالات و التعقيدات على مستوبي النظرية و التطبيق في مجال المصطلح النقدي، و لن نستبق الأمور بالحديث عن هذه التعقيدات في سياقها المعجمي، و لكن حسبنا عموم الإشارة هنا إلى ما أفضت إليه جهود أصحاب تلك المعاجم من مشكلات تنطوي على مفارقة طريفة، إذا قصد أهل العربية إلى جعلها وافية بمتطلبات العلوم و الفنون كأنما يقدمون سردا مشخصا عمليا على دعوى قصور العربية، و لكن المعجمات المتعددة المتنوعة التي وضعوها قد حملت إليهم وضعا من التشعب، إذا أصبح الناظر في معجمات الموضوع الواحد يجد بإزاء المصطلح الأجنبي الواحد مقابلين عربيين أو أكثر.

و أصبح من المشكلات الشاغلة الناجمة عن ذلك لأهل العربية مشكلة توحيد المصطلحات. و هو عنوان غير منسجم، إذ هي في الغالب ليست بالمصطلحات. و لو كانت مصطلحات لكانت متعارفة متداولة متفقا على المراد بها، و هي لا تعدو – في العادة– أن تكون ألفاظا أو مقابلات مقترحة للمصطلحات الأجنبية، اقترحها الواضعون على أسس شتى ... حتى ليشبه كل مصطلح أن يكون اختيارا قطريا.

فإذا كانت حدود البلاغة و النقد في التراث العربي لا تتجاوز في امتداداتها علوم اللغة و الدراسات القرآنية، الإعجاز تحديدا، فإن النقد الأدبي الحديث راح يتقاطع مع وفرة العلوم، كعلم النفس و الاجتماع و الجمال و علم الإنسان (الأنتربولوجي) و الأساطير، و علم اللسانيات وصولا إلى السيمياء و علوم الحياة (البيولوجي) و حتى البيئة، دع ما يقع من تداخل الأجناس الأدبية المختلفة (شعرا و قصة، و رواية، و مسرحا، و غير ذلك) مع فنون عديدة كالموسيقى و النحت و الفن التشكيلي و السينما، و غيرها. الأمر الذي يفرض على المشتغلين بالنقد الأدبي الحديث، و المعانين لمصطلحه الانفتاح على

ضروب مختلفة من العلوم و المعارف و الثقافات، هذا التراث، فتحرك ساكنا حيا، و تزيد ماءه حينا آخر، و تعمق مجراه و توسعه حينا ثالثا، فلا بد من ترجمة بعض هذه الروائع و الذخائر، فهي ملك الإنسانية كلها، و إذا كان تراثنا في الماضي لم يتردد في الاستفراد بضروب التراث المختلفة عند الأمم جميعها، و امتص كثيرا منها، و جعلها جزءا منه، فإننا سنقصر في حق أنفسنا و كرامتنا الفكرية، و في حق التراث الذي نصنعه للمستقبل حين نغلق منافذ النور من حيث أتى.

و على هذا الأساس يغدو اتصالنا بالآخر فرضا لا نافلة، و لاسيما فيما يخص الاشتغال بالنقد الأدبي، الأمر الذي يفرض ملاحقة مستمرة لكل جديد، و هذه صعوبة جوهرية يواجهها الناقد في العصر الحديث.

و في ثنايا ذلك كله تبرز قضية المصطلح واحدة من أهم القضايا التي ينبغي النظر إليها بمزيد من العناية و التأمل، و لاسيما و نحن أمام مذاهب و تيارات و مناهج نقدية عديدة، لكل منها مصطلحاته و مفاهيمه و قضاياه، و هو ما جعل الحاجة إلى تنظيم المصطلحية النقدية حاجة ماسة، و في إطار ذلك كله ظهرت الدعوة إلى إنجاز المعاجم المتخصصة التي تندرج في إطار التوجهات العلمية لحصر المصطلحات و تنظيمها و التعريف بها، وفق مناهج متنوعة، و وجهات نظر متعددة.

و مثلما سادت مصطلحات مثل نظرية الشعر، و نظرية الرواية، و نظرية الأدب، و غير ذلك، كان لنظرية المصطلح وجود حقيقي في ميادين المعرفة كلها، و ما يهمنا هنا هو تأمل هذه النظرية في سياقها الخاص بالنقد الأدبي و مصطلحه، على أساس أن مثل هذا البحث هو التحول الأساسي و الجوهري في دراسة مصطلحات النقد الأدبي و معاجمها.

إن وجود منجز مصطلحي أعد بوسائل و آليات صناعة المصطلح المعروفة يضعنا أمام ما يسمى بالمصطلحية التي تعنى بالجانب التطبيقي للمصطلحات. التي تتناول القضايا النظرية لمساءل الاصطلاح عامة.

و تشير الثوابت المعرفية إلى أن العلاقة بين النقد الأدبي و منظومته الاصطلاحية، يشوبها الكثير من التشويش و الاضطراب، و من مظاهر ذلك ما نجده من اختلاف في كثير من المصطلحات في صياغتها الفنية أو في فهم محتواها، بحيث أصبحت إشكالية المصطلح من العبارات المألوفة في الدراسات النقدية، و لا يخفى أن هذه الإشكالية ذات أوجه مختلفة، ففي بعض الأحيان نلمس ملامحها في الصياغة اللغوية الخارجية للمصطلح كما في مصطلحات (الرومانطيقية، و الرومانتيكية، و الرومانسية) أو (الهدمية، و التفكيكية، التشريحية، و التقويضية) و أحيانا أخرى تتجلى هذه الإشكالية

في مفهوم المصطلح و دلالته المضمونية كما في (الشعر الحر) إذ أنه ترجمة لشيء آخر غير الذي أطلق عليه في أدبنا العربي.